

الفلسفة الصغرى للحياة

١ - كيف ينبغي أن نعمل ؟

للكاتب الفرنسي أندريه مورو

ترجمته الأستاذ صلاح الدين المنجد

—*—*—

هذه أول خمس محاضرات ألقاها ثلاثة مشهورات ،
الكاتب الاجتماعي الكبير « أندريه مورو » ، حضور الجميع
التي الفرنسي ، جلا فيها على القراء من المل ، والفكر
والحب ، والزراعة ؛ وبين في إحدى المحاضرات كيف ننق
سعداء ناهي الال ، إذا خلا الشباب واشتغل الرأس شيئا
ولد ثلثا هذه المحاضرات إلى العربية للاقه من إيجاب ،
ولا فيها من آراء ذات شأن (المنجد)



هل علينا من حرج إن ذكرنا ما يقوله المجمع عن « العمل »
فناشئنا وبيننا النقص الذي فيه ؟ ... فإن حديثنا هذا ربما ملك
علينا أسرا فدفنا إلى الإفاضة فيه . يقول المجمع : « العمل هو
إتفاق جهد متب لإتمام شيء » . ولكن هذا التعريف ناقص
غير واثق ، فلم يكون الجهد متبيا ؟ ... لنضع للمجمع إلى أروابه
ولنضرب الأمثال : هذا صانع جراز يمدد إلى قطعة من سلال
فيسويها شكلا يريد ، ويرضاه . وهذا حارث يثقل الأرض ويذلها

للزراع ، فلا تلبث أن تهتر وتهتر الخيرات . وهذا كاتب قصص
يخلق كائنات يخلع عليها من عبقريته وخياله جالا ، ثم ينضج فيها
من روحه سحرا ... مستمداً عناصرها من البيئة التي تحيط به
فتلا سمه وبصره ، فيأتى بأثر رائع لا يفنيه الحدان
فالمعمل - كما اعتقد - هو تسليط قليل من التبديل والتحويل
على العناصر التي نأخذها عن الطبيعة ؛ مما يجعلها أكثر فائدة
وأشد جالا . وهو كذلك دراسة القوانين التي يخضع لها ذلك
التبديل ، وتبيان حدوده ومداه

ولقد عرف « باكون » العمل عند ما عرف الفن ، فهو
يقول : الفن هو الطبيعة مضافة إلى الرجل ؛ أي هو ما نأخذه
من الطبيعة ، وما نصيف إليه من أشياء ، يظهر فيها أثر تفكيرنا
وعبقريتنا . والحق أن كل عمل يجب أن يكون فنا
وسأذكر بادي الأمر القوانين التي لها صلة بكل عمل ، ثم
أفصل أحكام عمل الصانع اليدوي ، وعمل المرأة في منزلها ،
والطالب في مدرسته ، والفنان في مصنعه ، والكاتب في مكتبه .

* * *

وعلى الرغم من وفرة الأعمال وتعددتها ، فإن هناك قوانين
تصلح لها كلها . فاختيار العمل الذي نجد في أنفسنا قدرة عليه
وجا له ، هو أول ما يجب أن نفكر فيه . فإن قوة المرء وقواه
عبدوان لا يتسمان إلا إلى مدى . والمرء الذي يريد أن يقوم
بكل عمل لا يتقن شيئا . ألا تنظرون إلى أولئك الذين أوتوا
مواهب شتى ؟ يقول أحدهم : لو أني طينت الموسيقى لحفقتها .
ولو أني طلجت السياسة لمارذكوى واستفاقت شهرتي . فكل عمل
هين لدى . إنهم يكوّنون من هواة الموسيقى لا من فوائها ...
ومن الفاسلين في التجارة لا الرابحين منها ... ومن الفاشلين
في السياسة لا الناجحين . لقد كان يقول نابليون : إن فن
الحرب يجب أن يكون المرء قويا كأشد ما تكون القوة ،
في مضمار واحد . وأنا أقول إن فن العيش يجب أن يستهدف
المرء في هذه الدنيا أسرا ، فلا يزال يوجه إليه قواه ، ويصخر له
مواهبه حتى يظفر به . ولذا كان خطأ أن ندع للأقدار دائما
معبير عملنا في الحياة . فالحياة جهاد ونضال ، ومن لم يمد نفسه لها
فقد باء بفشل عظيم ... يجب أن يسائل الرجل نفسه فيقول لها :

والسائل الحق لا يهتم شيء ، ولا يعرف الخيبة أو الفشل .. ويعلم أنه سيبذل ما يريد إذا اختار عمله ، ثم قسمه ، ثم مضى فيه ... وويل للجهان ... يخاف كل عمل ... فلا يعمل . أما الشجاع فهو الذي يستحق الحياة ...

وأنا لا أعجب لشيء كعجبي لأولئك الذين يرسلون الشكوى من هذه الحياة وطولها . أنا أسألم : هل يعيشون ثمانى ساعات في اليوم ؟ هل يعملون فيها عملاً حقاً ؟ فإن الكاتب مهما كان هزيل القريحة إذا سوّد كل يوم صفحة واحدة يجد في أيام شيخوخته تراثاً عظيماً يجعله بين النابئين ، كبلزك وفولتير

ولكن هل يكفي أن نجلس إلى المنضدة ؟ ألا يجب أن نخضع لنظام في عملنا ؟ فلا ندع عملاً قبل أن نفرغ منه ، لأن اللذة بالعمل تزايد تزايداً هندسياً إذا لم نقطع عنه ، وهذا الأمر حق عند الكاتب الذي يطلب وقتاً ينسى فيه العالم الخارجي ويتفرغ إلى أفكاره وآرائه ، وهو أيضاً حق عند الصانع أو الرئيس لكي يتقن العمل وينجو من شر المحيط

وخلق العامل أن يبتعد عن البيئة الخارجية إذا بدأ العمل ، لأن هناك طفلين لا يهتمون عنه ولا يشفقون عليه ، فهم يتكلمون ويثرثرون ، ولا يفكرون في أنهم لو تركوا من يتكلمون معه ، لاستطاع القيام بعمل ذي شأن . فهو لا يزيدون الرء إلا خراً . إنهم يسخرون منه ، ويستهزئون به ثم يدعونه متحسراً على ما فات ساحكين .

بوركت يا غوته ! لقد أدركت الحقيقة منذ سنين وسنين . لقد قال : « يجب ألا تضيع وقتك مع أناس يأتون إليك دون أن تعلم . إنهم يفيدون منك علماً ثم يدعونك . إن هذه الزوار لا تفيد شيئاً . إنها تفسد عليك آراءك ، وتنقلك إلى عالمك الخارجي الذي هربت منه ، بعد أن اسطفيت منه صوراً جثت لتقطع عليها مسحة من عقلك فتجعلها آية للناس . أنا غنى عن أنكارهم ففسي ما يكفي » وليحدد طرائق العمل ، فإذا نظر فيها اختطه نفسه بعد سنوات لقي كل شيء هيناً ، فيثق آتئذ بقدرته ويرضى من سعيه فلا يتعاس ، ولا يخلد إلى الراحة والهدوء . على أنه يجب أن نعلم الأشياء التي نطلب عملاً مباشراً كي نقوم بها ثم تشكل على خطتنا

تري أي عمل أستطيع أن أكون له كفوفاً ؟ أنظر إلى ميولك ومواهبك ، ثم فكر طويلاً في نفسك ، وفي أمانتك ؟ فإذا كان لديك ولد ذو بأس شديد وقوة ، فأرسله إلى الجيش ، ودرّبه على الطيران ، لأنه لا يصلح لأن يكون رئيس ديوان .

فإذا اختار الرء مهنة رضى عنها ... فإنه واجد فيها أموراً لا بد من أن ينتخب منها أمراً واحداً ، ترشاه نفسه ، ويقبله هوامه . فالكاتب لا يستطيع أن يبدع الأقيصيص أو الروايات كلها ، والسياسي لا يستطيع إدارة الوزارات جميعها ... والسافر يمجز عن اجتياز الأرض من شمالها إلى جنوبها . ولا بد لنا من أن نكون في بعض الأحيان صملاً لا نهتمس به أهواؤنا في خاطرننا ... فتسيطر على إرادتنا وتدفعنا إلى تنفيذ شيء . فكر طويلاً ، وقدّر كثيراً ، فلديك الوقت المتسع ، ولديك التفكير ، وكن كفائداً الجند الذي يقضى على كل شئ بكلمة واحدة يلفظ بها أمام جنوده ... فيستمعون إليه وينفذون أمره . نفذ أمر إرادتك كما ينفذ الجند أمر قائدهم ، وقل لنفسك : ما عسى أن أصنع في عالمي هذا ؟ أأصلح للامتحان ؟ أأطوف في البلاد ... ؟ أأعمل في مصنع ... ؟ فكر طويلاً ، وناقش آراءك نقاشاً هادئاً في زمن محدد ، واجعل لنقاشك نتيجة ترجع إليها ، وتمضى في سبيلها ، فإن التردد قاتل ، والهوى غيف

فإذا اطمان الرجل إلى عمله ... قلبيات له ، وليضع حبال ناظره ما يستهدفه في سيره البعيد وهو واثق بأنه سيبذل القمة يوماً ، وإن عظم الجهد ، أو طالت الطريق ، لأن أول كل صغير كبير ...

لقد جاء « ليون » إلى سراكن ، فوجد بلاداً عاث فيها الساسة ، لا رئيس ولا ذخيرة ولا مال . ولو أن من أتى إليها كان غير « ليون » للب الرعب في قلبه ، وسيطر اليأس على نفسه . ولكنه كان ليون العظيم . لقد بدأ بالندن فجمع كلها ، ووحد صفوفها ، وسخرها لما يشاء بما يشاء . ثم انتقل إلى البادية ، فازال يؤلف كلمة كل قبيلة ، وسيطر على كل زمة ، حتى بلغ ما أراد ... بعد أن جهد طويلاً وتسب كثيراً . إن الحصاد لا يحصد سنابل القمح ... في الحقل .. بنظرة ، ولكن عوداً بعد عود . وإن مظنة الثياب لا تفرع الأوساخ عنها بلحظة ، ولكن ثوباً جيد ثوب ...

في النفس ، يستول عليها الاطمئنان ؛ فإن الكاتب الذي آلف كذا وكذا من الكتب لا يصعب عليه إتمام كتاب بداه . إنه يحسر كما جسر « مارتن دو كارد » و « دو هامل » و « جول رومان » و « لا كروئيل » على وضع عدد عظيم مما لا أستطيع معه صبراً ... »

وقال أيضاً : « إن الذي يتوق إلى الخلود وبود إخراج آيات فنية رائدة لجدير به ألا يدع هواه يسيطر على نفسه » يقول الطفيلون لك : أين أنت ؟ إننا لا نراك ! تعال غداً لنلهو أو لنصيب طعاماً معاً ... انقل لهم ولا تخش شيئاً ! أنت بحاجة إلى هوكم وغذاءكم ... فدعوني وحيداً ... »

وكان « غوته » لا يجالس أحداً إذا انغمس في الكتابة أو النظم ... فإذا جاء إليه رجل على الرغم من خادمه المجوز أرسل يديه إلى ظهره ولاذ بالصمت وتكلم بحاجبيه وعينه ، فيمل الزائر منه .. ويدفعه هذا الصمت القاتل إلى الحرب . أما رسائله فكان ينزع منها ما فيه فائدة وعلم ، ويرى بالتي يطلب أصحابها منه شيئاً إلى النار ويقول : « وبحكم يا شباب هذا العصر ، إنكم لا تعرفون للوقت غناً ... »

يقول نفر من الناس : هذا غرور بالنفس واحتقار للزائرين . فكم رجال عظماء كانوا يحميون على الرسائل أو كم طفيليين هم جديرون بالرحمة والطف . وينال هذا النفر ... فيصم غوته بأنه رجل غير إنساني . ولكني أسأله : هل يستطيع رجل غير إنساني أن يدع لنا « فوست » الخالدة أو يخلق « وليم مستر » الرائعة ؟ إن من يهمل أمره ... يأكله الناس . . . فيمضي دون أن يترك لنا أثراً نفيد منه ... والرجل الذي يحب العمل ، ويجد فيه لذة وامتعة ، ويقبل عليه بشوق ومحبة ... لا يريد إلا رجلاً على شاكلته . هو يساعد الناس ... ولكنه يفر من الحديث السخيف ، والثرثرة الخفيفة . ولذا كان « غوته » ينصح أيضاً للأديب أن يهمل حوادث يومه العانة ، إذا لم يكن فيها ما ينفذ خياله أو يهيج نفسه . فلقد ما تكون أضياء ، عندما تقضي ساعة من يومنا في الاستماع إلى أخبار الحرب القادمة ، وساعة في نتائجها ... وأخرى في أساليبها ... ولم تقلد بعد كرسي الوزارة ، أو تحمل عصا القيادة ، أو نمسك بقلم الصحافة ... إننا نسي إلى بلادنا ...

ونسي وراءها بجله قلوبنا . وليكن قلبك وعقلك متجهين دائماً نحو الهدف . فإذا أصبت يوماً استطعت أن ترجع على خطاك . تلمس الطريق على هدى وتنتظر إلى العقبات التي اعترضتك فتستمد من ذكرى ظفرك بها قوة لمسك القادم وأملأ لميشك الجديد إن التوايح يدأبون بشغف على العمل . فلا يدعونه حتى يفرغوا منه ، ولا ينكبون على عمل آخر قبل أن يشموا الأول ، وتكون عقولهم متجهة نحو طريق واحدة كما يقول الشلل الأميركي . ورعاً كان ذلك باعاً على الضجر مسيئاً لللل ، ولكن ما أهنأها ساعة يتقلب المرء فيها على العقبات ، ويصل إلى هدفه ظافراً !

فإذا اخترت لنفسك عملاً ، فابك تختاره حسب ما تستطيع أن تقوم به قواك ، وتوصلك إليه مواهبك . ومن الخطأ اتباع أمر لا يحج لك فيه . والنشل يشل القوى ويفقد النشاط . كان « غوته » ينصح للشراء الشباب أن ينظروا قصائد قصاراً عرضاً عن ملحمة واحدة كبرى ، لكيلا يشعروا بآسوا على ما فاتهم . وكان سموتيل بونر يقول : « إذا أكلتم الفنب ، فابدأوا بما ينضج من حبته » وجدير بالمرء في عمل صعب متشابك أن يميزه إلى أقسام ، ثم يمد إلى كل قسم فيتمه . فإذا كانت أمانتك طريق صعبة طويلة تود أن تسلكها نفسها إلى مراحل لأن من الصعب أن تقضي فيها وتصل إلى متنها في لحظات ، ثم اقطع كل يوم مرحلة . . فلا تلبث إلا قليلاً حتى تجد نفسك في غايك ، دون أن تلب نفسك أو تهجد جسمك . كن كالصمد في الجبل الأمل في بلوغ القمة ؛ إنه لا ينظر إليها دائماً لأنه منهمك في الخطوة التي سيخطوها ... أما القمة فلن يمد لها سجين ... يخيفه ويشل قواه إذا حدث فيه .. فلنمض رويداً .. وعسى بالعمل الدائب أن يصل إلى مبتغاه .

إن تدوين تاريخ لأمة من الأمم منذ أيامها الخاليات إلى أيامها الحاضرات لعمل صعب يخافه الناس ... لأنه يبدو من أعمال الجبايرة الذين سما مقامهم وعظمت قدرتهم . ولكنك إذا قسمته إلى عصور وبحث في كل عصر فإذا قرنت منه انتقلت إلى آخر غيره ، لم تلبث أن تجد يوماً عملك المنضم بين يديك فتقف متجنباً وهشاً . ثم يثبت القلب بعد التجارب ، وتدب الحاجة